صورةُ المفْرَق في التراث الجغرافي العربيّ وكتب منازل الحجّ

المهدي الرواضية
الجامعة الأردنية

ملــخص

حظيت المدن والمواضع الواقعة على طريق حجاج الشام باعتناء الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين، وتضمنت مدوناتهم وصفاً لطبيعتها الجغرافية وأحوالها العامة من حيث الموارد المائية وتوفر الغذاء، والعلف اللازم لإطعام الدواب، وحالة الطرق التي تخترقها أو تمرّ بجوارها من ناحية الأمن وصعوبة المرور وغير ذلك مما يتوجب على المسافر الحذر منه كاللصوص وقُطَّاع الطريق. وتضمنت كتب منازل الحج أيضاً إفادات مقتضبة هدفها خدمة الحاج وإحاطته علماً بمسار الطريق وأحوال المواضع الواقعة عليه.

وكانت المفرق (واسمها القديم الفدين) قد احتلت مكانة مهمة قبل الإسلام بوقوعها على الطريق السلطاني القديم (طريق تراجان)، وساهمت تضاريسها المنبسطة في جعلها ممراً يفضله المسافرون بعيداً عن مسالك الصحراء شرقاً، ومضايق جبال عجلون غرباً.

وتهدف هذه الورقة إلى تتبع أوصاف الجغرافيين والرحالة العرب عن المفرق (الفدين) وملاحظة حضورها في مؤلفاتهم وفي المصنفات الخاصة بمنازل (محطات) الحج، وبيان انطباعاتهم عنها وعن بقعتها الجغرافية.

الكلمات الدالة: المفرق، الفدين، كتب الجغرافيين والرحالة العرب، كتب منازل الحج،

مدخل:

توفَّرَت معلومات جيّدة عن الطريق البرّيّ التي تربط فيما بين الشّام والحجاز، ونالَت المفرق، بوقوعها على هذه الطريق، حيّزاً مُرضياً من التعريف والذكر، وازدادَت المعرفةُ بها في العهد العُثمانيّ بمرور قافلة الحجّ القادمة من إسطنبول مروراً ببلاد الشام حتى الحجاز، وتوجد هذه التفصيلات في ثلاث محافظ أو مصادر أساسية:

1. **كُتُب الجغرافيّين والرَّحَّالة العرب:** وهي تتضمَّن مادَّة جيّدة وموسَّعة عن المواضع والمدن والقرى، ونالت المدن والأماكن الواقعة على خط سير ركب حُجَّاج الشام حيّزاً من إفادات الرَّحَّالة، خاصة في رحلات الحج، أو الرحلات المتوجّهة إلى إسطنبول على الطريق البرّيّ مُروراً ببلاد الشّام.

2. **كتب منازل الحجّ والأدلّة الإرشاديّة:** وهي التي تُكْتب للحُجّاج لإرشادهم بالمواضع التي تخترقها قافلة الحج وحالة الطرق، إضافة لتعليمهم كيفيَّة أداء مناسك الحج، وأغلبها باللغة العُثمانيّة، ومنها منثور ومنظوم، واعتنى مؤلّفوها بتعداد المحطَّات التي يسلكها موكب الحجّ من اسطنبول (أو من أدرنة) عبر بلاد الشّام وصولاً إلى مكَّة والمدينة المنوَّرة، وهي تتَّصفُ باقتضاب مادَّتها وتقديم معلومات عامّة ومقتضبة لفائدة الحاجّ. وقد أحْصَت الباحثةُ التركية إسراء دوغان Esra Doğan في دراستها الصادرة باللغة الفارسية نحو 30 كتاباً ورسالة تقع ضمن هذا النمط من المصنفات[1]، ومن أبرز كتب منازل الحجّ العثمانية التي اطّلع عليها الباحث، واستعان بها في إعداد هذه الورقة[2]:
   - مناسك المسالك، لعبد الرحمن هبري أفندي (ت 1069هـ/ 1659م)، ضمَّنه مشاهداته في رحلته للحجّ سنة 1041هـ/ 1632م، وذكر المسافات بين المنازل بالساعات.
   - منازل الطريق إلى بيت الله العتيق، لعبد القادر شلبي المعروف بقدري، وثّق فيه المؤلف رحلته إلى الحج سنة 1056هـ/ 1647م[3].
   - كتاب دليل المناهل ومرشد المراحل، وهي منظومة طويلة من تأليف القاضي والشاعر مصطفى البوسنوي (ت نحو 1164هـ/ 1750م)، تتبَّع فيها محطَّات الطريق التي يسلكها الحجَّاج اعتماداً على مُشاهداته في رحلته للحج سنة 1161هـ/ 1748م.
   - منازل الحجّ، ومسافة الفج للعج والبج من غير اللَّج، تأليف الحاج إبراهيم، قيد المؤلف فيه محطَّات الطريق البريّ من إسطنبول حتى الحجاز على تقدير الساعات في حجه سنة 1194هـ.
3. **دفاتر الصُّرَّة العُثمانيّة ووثائق مصروفات موكب الحج العُثمانيّ:** ويُقدَّر عددها بنحو 4170 دفتراً، ممَّا يحتفظ به الأرشيف العُثمانيّ، ويشتمل دفتر الصُّرَّة الواحد على نحو ستّ وعشرين دفتراً بحسب الجهات المستهدَفة والمستفيدة من المخصَّصات المالية[4]، وهي تتضمّن مادَّة قيّمة عن الطريق البرّيّ المتَّبعة من قبل موكب الحجّ، وتوفّر مصدراً إضافيّاً في دراسة هذه الطريق ومحطّاته حتى سنة

(1) دوغان: راه زميني حجاج عثماني از إستانبول تا حجاز، ص 950 ـ 955.
(2) يتقدّم الباحث بالشكر الجزيل للمؤرّخ التركي الأستاذ الدكتور سهيل صابان، الذي تفضَّل، بنَفْس طيبة واستعداد كبير، بترجمة العديد من النصوص العثمانية لغايات إعداد هذه الورقة.
(3) دونمز: المنازل الحجازية لطرق الحج، 238 ـ 239. ولم يرد اسم المؤلف في مخطوطة الكتاب، واستطاع الباحث مصطفى دونمز الوصول إلى اسم المؤلف.
(4) جاغلار: المحمل الشريف 117، المصعبي: الصُّرَّة «دراسة وثائقية لنموذج دفتر عام 1171هـ/ 1758م»، 107 ـ 108.

1281هـ/ 1864م[1] عندما أصبَحت الصُّرَّة ـ ومعها ركب الحُجَّاج ـ تنتقل بواسطة السفن البحريَّة إلى بيروت، ثم تُواصل سيرها برّاً نحو الحجاز[2].

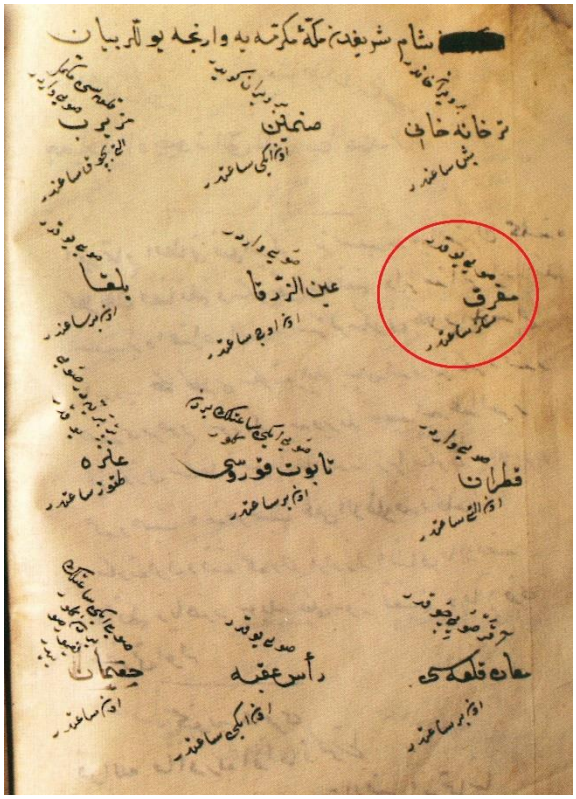

الأماكن التي سلكها موكب الحج العثماني حاملاً للصرة السلطانية،
دفتر الصُّرَّة رقم 48.306 لسنة 1254هـ/ 1838م.
المصدر: جاغلار: المحمل الشريف 291.

وتستندُ هذه الورقة، من بين المنابع الثلاثة المتقدّمة، على النوعَين الأوَّلين فقط، أي كتب منازل الحجّ ومُصنَّفات الجغرافيّين والرَّحَّالة العرب، أما دفاتر الصُرَّة، فإنَّ المنشورَ منها لا يُوفّر مادّة كافية للبحث، وإن تمَّت الاستعانة بالمتاح منه.

(1) يُنظر كمثال: دفتر الصُّرَّة رقم: (EV. HMK. SR. 01807) لسنة 1171هـ/ 1758م، لدى فاطمة المصعبي: الصُّرَّة «دراسة وثائقية لنموذج دفتر عام 1171هـ/ 1758م»، ودفتري الصُّرَّة رقم (1)، ورقم (2422) اللذين عرف بهما حسين أوزدمير Hussin Özdmir في دراسته المنشورة ضمن كتاب المحمل الشريف 123 ـ 129، والدفتر رقم (B/ 306. 48) لسنة 1253هـ/ 1837م، وقام منير آطالار Münir Atalar بالتعريف بهذا الدفتر في دراسته المنشورة ضمن كتاب المحمل الشريف 289 ـ 301.

(2) تمثل رحلة سويله مز أوغلي مثالاً على هذه النوع من مراكب الحج البحري البري، وكان سويله مز قد رافق والده علي كمالي باشا، أمين الصُّرَّة في سنة 1307هـ/ 1890م، وكتب مذكراته حول هذه الرحلة.

الموقع والتبعية الإداريّة:

تقع المفرق في شمال المملكة الأردنية الهاشمية، على خطّ الطول 12´- 36° شرقاً والعرض 20´- 32° شمالاً[1]، وهي على بُعْد نحو 70 كم شمال العاصمة عمّان، و 35 كم جنوب مدينة الرمثا الحدوديّة، وهي محافظة كبيرة المساحة، وتعدّ ثاني محافظات المملكة اتّساعاً، ومركزها مدينة المفرق.

وكانت جزءاً من إقليم مشهور ومعروف منذ زمن طويل، يُعرف بحَوْران، ويحمل إرثاً تاريخياً ممتدَّاً لأعصار متطاولة، وهو إقليم ممتدّ يشمل جزءاً من شمال الأردن وجنوب سوريا بما فيها الجولان، وقاعدته مدينة بُصْرَى، ليس بينها وبين المفرق إلا نحو 40 كم، وأتاح قُرب المسافة بينهما للرَّحَّالة سويله مز أوغلي وهو في المفرق مشاهدة أنقاض مدينة بُصْرَى التي يُطلق العُثمانيّون عليها اسم: (اسكي شام)، أي الشام القديمة[2]؛ وبالتالي فإنَّ المفرق ومشاريقها تقع على الطريق السلطاني (طريق تراجان) وعليها مسير المسافرين وقوافل التُّجَّار بين الشّام والحجاز[3]، وقد مرّ بها ـ أو بأطرافها ـ امرؤ القيس في رحلته إلى ديار الروم، بقوله:

فلمّا بَدَتْ حَوْرَانُ في الآلِ دُونَها نَظَرْتَ فلم تَنْظُر بعَينِك منظَرَا[4]

كما مرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بأطْراف المفرق، أو بالمنطقة الشرقية منها على وجه التأكيد، في طريقه إلى سوق بُصْرَى مع عمّه أبي طالب وهو صغير السنّ وقبل أنْ يُوحى إليه، وأيضاً في تجارته لخديجة بنت خويلد[5]. وكذلك أبو بكر الصديق في رحلاته التجارية إلى بُصْرَى[6].

وكانت تبعيّة المفرق الإداريّة إلى جُند دمشق هي وكامل بلدات كورة حَوْران[7]، وجعل المقدسيّ البشاري تبعيّة حَوْران لجند دمشق، لكنه أتْبع أذرعات (درعا الحالية، شمال المفرق) إلى جُند الأردنّ، فتكون المفرق ـ وفقاً لتحديده ـ ضمن جُنْد الأردن وليس جند دمشق[8].

---

(1) Bakhit: Mafraq "in: Studies in the history of bilad al-sham", 187.

(2) رحلة سويله مز أوغلي 136.

(3) عباس: الأنباط 107، أبو الشعر: تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني 411، درادكة: طرق الحج الشامي 97، Bakhit: Mafraq "in: Studies in the history of bilad al-sham", 187

(4) ديوان امرئ القيس 61.

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى 1: 130ـ 131، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 3: 3 ـ 16، 16: 372، 22: 161.

(6) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 35: 33، 22: 161.

(7) ابن خرداذبة: المسالك والممالك 77، الإدريسي: نزهة المشتاق 1: 377، ياقوت: معجم البلدان 2: 317، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 11: 279.

(8) المقدسي: أحسن التقاسيم 154.

وكانت في العهدين الأيّوبيّ والمملوكيّ تتبع لدمشق، وقد حَمَلت منطقة المفرق وجوارها حتى الرمثا اسم الصويت[1]، وهو إقليم ذكره شَيخ الرَّبْوَة وابن فضل الله العُمريّ من توابع عجلون من أعمال دمشق[2]. أما في العهد العُثمانيّ، ورغم عدم وضوح التقسيمات الإدارية قبل عهد التنظيمات، فيظهر أن المفرق كانت أولاً جزءاً من لواء حَوْران، ضمن ناحيتي بني جُهمة وبني الأعسر، وجرى إلحاقها إلى لواء عجلون في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، ثم استقرَّت تبعيتها إلى قضاء عجلون بعد إقرار التنظيمات العُثمانيّة[3].

ورغم اقتضاب المادَّة الجغرافيّة وإفادات الرَّحَّالة حول المفرق وجوارها مقارنة بغيرها من الأماكن الواقعة على درب الحجيج، فمن المؤكَّد أن المنطقة كانت معمورة منذ أزمان بعيدة، وكَشَفت البحوث الأثريَّة عن وجود آثار في نواحي المفرق يرجع أقدمها إلى العصر الحجريّ القديم (500.000 - 10. 000 ق م تقريباً)، فهي ـ بذلك ـ من المواطن التي عاش فيها الإنسان الأوّل، اعتماداً على الأدوات الصوانيَّة التي عُثر عليها في وادي الحارث (غرب الأزرق) والخناصري (بين المفرق وإربد)، واشتملت هذه اللُّقَى الصوانية على عدد من الفؤوس اليدويّة والمفارم والمكاشط[4]، كما دخلت منطقة المفرق تحت حكم الأنباط بعد توسُّعهم شمالاً إلى نواحي دمشق[5]، وكان من آثارهم فيها مدينة أُمّ الجمال (12 كم شرقي مدينة المفرق) المبنيَّة من الحجارة البركانيّة السوداء[6].

التسمية والمدْلول:

حمَلَت المفرق اسماً قديماً هو الفَدَّيْن، وهو الضبط الذي قيَّده ياقوت وسبط ابن الجوزيّ بالشكل دون الحرف[7]، وخالفهما الفيروزآبادي في جعل الدال المشددة مكسورة عوض الفتح، أدرجه في مادة فَدَد، وعرَّف به: «الفَدِّينُ: موضعٌ بحَوْرانَ، منه: سعيدُ بنُ خالد العُثمانِيّ، ادَّعَى الخلافةَ أيامَ هارون! »[8]، وتابعه

(1) الجالودي: قضاء عجلون 32، 39، 59، 61، 150، وانظرها على خريطته ص 144، أبو الشعر: تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني 152، 195.

(2) شيخ الربوة: نخبة الدهر 201، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار 3: 361. وانظر القلقشندي: صبح الأعشى 4: 103 ـ 108، ولم يذكر القلشندي الصويت لكنه ذكر المواضع المجاورة لها وأتبعها لدمشق مثل أذرعات وبصرى وغيرهما، فتكون حكماً في التبعية إليها.

(3) أبو الشعر: تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني 11 ـ 15.

(4) هاردنج: آثار الأردن 27، كفافي: الأردن في العصور الحجرية 74 ـ 75.

(5) هاردنج: آثار الأردن 50، مخلوف: الأردن 244، عباس: الأنباط 73، 83، التل: الآثار العربية والإسلامية 11.

(6) هاردنج: آثار الأردن 183، عباس: الأنباط 83، التل: الآثار العربية والإسلامية 25ـ، مخلوف: الأردن 39 ـ 47، المحيسن: الحضارة النبطية 217.

(7) ياقوت: معجم البلدان 4: 240، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 11: 279.

(8) الفيروآبادي: القاموس المحيط 1226.

الزبيدي على ذلك الضبط بكسر الدال، ونقل نصّه، ووجَد في بعض نسخه أن العُثمانيّ المذكور ادَّعى الخلافة في زمن المأمون[1]، وهو الصواب.

ويظهر أن ضبط ياقوت وسبط ابن الجوزي هو الأدْني للصواب، تثنية للفَدّ، وهو الشقّ في الأرض؛ وبه سُمي المزارعون: الفدَّادين، لأنهم يحفرون الأرض، يقال: فدَّت الإبلُ الأرضَ: شدختها بخفافها من شدَّة وطئها، ومنه الفَدَّان: الثوران الذين يُقرن بينهما للحراثة[2]. والداعي لترجيح ضبط ياقوت وسبط ابن الجوزي راجع لعدّة اعتبارات، منها: أقدميَّة الضبط لديهما، ولكونهما عاشا في الشّام مدّة من حياتهما فهما أقرب لبيئة الاسم وأعْرف به من الفيروزابادي الفارسي الأصل وإن كان قد زار الشام في إطار رحلته الواسعة، ولأن ياقوت جغرافيّ له اطّلاع واسع على كُتُب الجغرافيّين ومصنَّفاتهم، ومُتَحرٍّ الضبطَ في كلّ الأسماء التي أوْردها.

وأرجعَت بعضُ الدراسات مدلول التسمية بأنها تعني الحصن أو القصر[3]، اعتماداً على ما أوردته معاجم اللغة من أن الفَدَن هو القصر المَشِيد أو الضخم[4]، وبالرغم من وجود حصن بالمفرق لبعض سُكَّانها في العصرَين الأمويّ والعبَّاسيّ، ممَّا يأتي بيانه، فإنَّ تقليب لفظة الفَدَن على الوجوه المختلفة لا يستقيم مع التسمية التي حملتها «الفَدَّين» ويصعب إسقاطها عليها، فضلاً عن الفارق في المدلول بين الحصن والقصر الضخم! فإن كان على الجمع فهو أفْدان، وإن كانا حصنين على التثنية فحقهما أن يكونا: فَدَنان، وعلى تصغير لفظة الفدن فهو: الفُدَيْن، وبه سميت إحدى القرى الواقعة على الخابور[5].

ارتبطَت الفدَّين بأحفاد خليفتين من الخُلفاء الراشدين، هما الخليفة أبو بكر الصدِّيق، والخليفة عُثمان بن عفَّان رضي الله عنهما، وحفيد الأول منهما هو عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت 126هـ)، وهو فقيهٌ ومُحدِّثٌ ثقة، وكان أحد أربعة رجال من فُقهاء المدينة المنورة، كان الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (ت 126هـ/ 744م) قد اسْتدعاهم إلى دمشق لمباحثتهم في مسألة فقهية في سنة 126هـ، وهم ـ إضافة لعبد الرحمن ـ : ابن أبي الزناد، ومحمد بن المنكدر، وربيعة الرأي، فلما وصلوا إلى «الفدين من أرض حَوْران» توفّي عبد الرحمن بن القاسم، ودفن بها[6].

---

(1) الزبيدي: تاج العروس 8: 481، 35: 498.

(2) ابن منظور: لسان العرب 13: 321.

(3) الرجوب: العمارة الإسلامية 45، Bakhit: Mafraq "in: Studies in the history of bilad al-sham", 187

(4) الفراهيدي: كتاب العين 8: 50، الأزهري: تهذيب اللغة 8: 278، 14: 100، الجوهري: الصحاح 6: 2176، ابن منظور: لسان العرب 13: 321.

(5) البلاذري: أنساب الأشراف 7: 69، ياقوت: معجم البلدان 4: 240.

(6) ابن سعد: الطبقات الكبرى 7: 452 وفيه: «الفُدين» بالضم، البلاذري: أنساب الأشراف 10: 111 ـ 112، ياقوت: معجم البلدان 4: 240، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان 11: 279.

وأمّا الثاني، فهم بعض أحفاد الخليفة عُثمان بن عفَّان رضي الله عنه، الذين كانت إقامتهم بالفدَّين خلال العصر الأمويّ والعصر العبَّاسيّ الأوَّل، ويرد من بينهم اسم سعيد بن خالد بن عمرو بن عُثمان بن عفان، أبو عُثمان ويقال أبو خالد القُرشيّ الأمويّ، وهو أيضاً محدّثٌ، أصْلُه من المدينة وسكن دمشق، وكان من أكثر الناس مالاً، وكانت قرية الفدين من ضمن أملاكه، ويُشار له بأنه «صاحب الفدَّين». وكان يقول إذا برقت السماءُ: أمطري حيث شئتِ، فما تُمْطرين إلَّا على بلدٍ لي فيه مالٌ[1]. وكانت ابنته أُمّ عُثمان متزوّجة من الخليفة هشام بن عبد الملك، والأخرى واسمها سَعْدة وتكنى بأُمّ عبد الملك عند الوليد بن يزيد، وكان مسكنه ـ قبل أن يلي الخلافة ـ قريباً من الفدَّين بالأزرق، على ماء يسمى الأغدف (وادي الغدف حالياً)[2]. ونقل الشيخ عز الدين التنوخي عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أنه كان ليزيد بن عبد الملك، والد الوليد، قصر بالفدّين إضافة إلى عدَّة قصور أخرى في زيزياء والأزرق والأغدف يتنقَّل إليها للصيد[3]، ولم أقف عليه في كتاب الأغاني.

وكان الوليد قد عاد سعيد بن خالد في مرضه، فلمح أخت زوجته واسمها سلمى، ووقَعت في قلبه، فطلَّق أختها وسعى في الزواج منها، فتزوَّجها وهو خليفة، وكان والدها قد رفض تزويجه إيَّاها، وأرسل الخليفة هشام إلى سعيد يحثّه على عدم الموافقة: «أيريد الوليد أنْ يكون فحلا لبناتك، يُطلق واحدة ويتزوَّج واحدة!»، وتراسل الوليد مع أبيها بأبيات عديدة من الشعر يسترضيه ويتقرَّب إليه، واستغرَقت أخبار الوليد مع سلمى وأبيها حيّزاً من سيرته وما تبودل بين ثلاثتهم من أشعار.

وممَّا يروى أن الوليد تحيَّل مرَّة لرؤية سلمى بالفدَّين، فلمَّا وصل القرية «رأى رجُلاً يبيع الزيت قريباً من منزل سعيد فأخذ ثيابه ولبسها، وساق حمار الزيت حتى أدخله قصر سعيد، وهو يُنادي: مَن يشتري الزيت؟ فخرجت الجواري فنظرن فقالت جارية منهنَّ لسلمى: يا سيّدتي، ما رأيت إنسانا أشْبه بالوليد من هذا الزيَّات ابن الخبيثة، انظري إليه، فاطَّلعت سلمى فقالت للجارية: ويحك هو والله الوليد! قد والله رآني فقولي له يا زيَّات أخرج لا نريد زيتك .. »[4]، وله مع سلمى أخبار طويلة وأشعار كثيرة.

ولا تُستغرب هذه الصلة بين أُمراء الأسرة الأمويّة والمفرق، وتردّدهم عليها، لقُربها من القصور العديدة التي أقاموها في الصحراء الأردنية (بادية الشام)، ومنها قصير عَمْرة الواقع في منطقة الأزرق (70

(1) البلاذري: أنساب الأشراف 6: 234، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 21: 53، 55، المزي: تهذيب الكمال 10: 408 ـ 409، الصفدي: الوافي بالوفيات 15: 216.

(2) البلاذري: أنساب الأشراف 142، الطبري: تاريخ الرسل والملوك 7: 211.

(3) التنوخي: الرحلة التنوخية 18.

(4) البلاذري: أنساب الأشراف 9: 138 ـ 142، الأصفهاني: الأغاني 7: 22 ـ 36، 51، وتحرف اسم الفدين في كتاب الأغاني إلى: قرين، فرتنى، وتحرف اسم الأزرق: الأبرق!.

كم شمال شرق عمان) ابتناه الوليد بن عبد الملك سنة 92هـ/ 712م[1]، وقصر الحرَّانة (65 كم شرق عمان) وفيه كتابة عربيّة بالخط الكوفي تؤرِّخ البناء في سنة 92هـ/ 711م[2]، وقصر البرقع (نحو 20 كم شمال غرب الرويشد)، وعليه كتابة كوفية تنسب البناء إلى الأمير ـ الخليفة فيما بعد ـ الوليد بن عبد الملك، وتؤرِّخ البناء في سنة 81هـ[3]، وقصر الموقَّر الذي شيَّدهُ يزيد الثاني ابن عبد الملك[4] ـ وقيل رمَّمه على أثرٍ روماني[5] ـ وقد ورد ذكْر قصر الموقَّر في أشعار العصر الأمويّ[6]، وقصر حمَّام السراح (3 كم شرقي قصر الحلابات)[7]، وقصر الطوبة (في وادي الغدف، 60 كم جنوب شرقي قصر المشتى)، ويعود لعهد الوليد الثاني (126هـ/ 744م)[8]، إضافة إلى الحصون والقصور الرومانية التي عمل الأمويون على ترميمها واتَّخذوها قصوراً لهم، مثل قصر الحلابات (30 كم شمال مدينة الزرقاء)، وهو في الأصل قلعة رومانيَّة[9]، وبالقرب منه بقايا جامع أمويّ صغير، أقيم في حدود سنة 104هـ/ 722م[10]، وقلعة الأزرق (80 كم شرق عمان) وهي قلعة ضخمة مبنية من حجر البازلت البركاني، وعليها كتابات يونانية تؤرخ بناءها في سنة 300م، ثم استخدمت كقصر لأحد الأمويين، وجرى ترميمها في العهد المملوكي وأرخ النقش الذي يعلو المدخل تاريخ تجديدها في سنة 634هـ/ 1236م[11].

(1) هاردنج: آثار الأردن 195، بيشة: القصور الأموية 19، طوقان: الحائر 68، مخلوف: الأردن 180 ـ 181، التل: الآثار العربية والإسلامية 34، الحديدي: الأردن وفلسطين 111، العابدي: الآثار الإسلامية 209 ـ 212.

(2) هاردنج: آثار الأردن 200، الحديدي: الأردن وفلسطين 111، بيشة: القصور الأموية 8، التل: الآثار العربية والإسلامية 50ـ 51، طوقان: الحائر 75، مخلوف: الأردن 179، العابدي: الآثار الإسلامية 214.

(3) العابدي: الآثار الإسلامية 217، التل: الآثار العربية والإسلامية 52، طوقان: الحائر 85.

(4) ياقوت: معجم البلدان 5: 226، هاردنج: آثار الأردن 205، طوقان: الحائر 73.

(5) العابدي: الآثار الإسلامية 200، 217، وانظر: النجار: تقرير أولي عن نتائج التنقيبات الأثرية في بلدة الموقر، 5 ـ 12.

(6) الرواضية: مدونة النصوص الجغرافية 2: 419 ـ 422.

(7) هاردنج: آثار الأردن 193، الحديدي: الأردن وفلسطين 111، العابدي: الآثار الإسلامية 209، طوقان: الحائر 428، 435، بيشة: القصور الأموية 22 ـ 24، التل: الآثار العربية والإسلامية 53، مخلوف: الأردن 171

(8) هاردنج: آثار الأردن 204، الحديدي: الأردن وفلسطين 111، العابدي: الآثار الإسلامية 200، 205، بيشة: القصور الأموية 10، طوقان: الحائر 61، مخلوف: الأردن 177.

(9) هاردنج: آثار الأردن 190 ـ 191، بيشة: القصور الأموية 20، التل: الآثار العربية والإسلامية 53 ـ 54، مخلوف: الأردن 167 ـ 169، وقد بنى علماء الآثار رأيهم هذا استناداً على نقش روماني عثر عليه داخل القصر، غير أن فواز طوقان يدحض هذا الرأي ويعتبر البناء أموياً خالصاً، وأن النقش المذكور قد نقل إلى القصر عند البناء مع ما نقل من حجارة، انظر: طوقان: الحائر 406 ـ 407.

(10) هاردنج: آثار الأردن 191 ـ 192، العابدي: الآثار الإسلامية 208، بيشة: القصور الأموية 20، طوقان: الحائر 421، التل: الآثار العربية والإسلامية 54.

(11) هاردنج: آثار الأردن 194 ـ 195، التل: الآثار العربية والإسلامية 78، العابدي: الآثار الإسلامية 216، مخلوف: الأردن 50 ـ 51.

وارتبَطَت الفدَّين بخبرٍ ثالث يتَّصل برجُل آخر من أهل الفدّين، وهو أيضاً من أحفاد الخليفة عُثمان بن عفَّان، واسمه يَقْرُب من اسم صاحب الفدين المتقدّم ذكره، بزيادة اسمين في سياقته، وهو سعيد بن خالد بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عُثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أمية الأمويّ العُثمانيّ الفدّينيّ، خرج في أيام المأمون وادّعى الخلافة بعد أبي العَمَيطر السُّفيانيّ، أي أن خروجه بعد سنة 195هـ، وهي السنة التي بدأت فيها العديد من الثورات في بلاد الشام ضدّ المأمون عقب وقوع النزاع على الخلافة بين الأخوين، وساق ابنُ عساكر خبر خروجه على الخلافة، ونقله عنه ياقوت الحمويّ والصلاح الصفديّ: «وكان الفدَّينيّ قد خرج وأغار على ضياع بني شهيب السعديّين، وجعل يطلب القيسيّةَ ويقتلهم ويتعصَّب لأهل اليمن، فأَرسل إليه محمد بن صالح بن بَيْهَس أخاه يحيى في جيش، فلما كان بالقُرب من حصنه المعروف بالفدّين، هرب منه العُثمانيّ، فوقفَ ابنُ بيهس على الحصن حتى هدمه وخرّب زَيزاء ونهبها، وتحصَّن العُثمانيّ في عَمَّان، في قرية يقال لها ماسوح، وصار يحيى بن صالح إلى عَمَّان واستمدّ العُثمانيّ بزيوندية الغَوْر وبأراشة وبقوم من غطَفان وانضمَّت إليه عيَّارة من بني أمية ومَن جلا عن دمشق من أصحاب أبي العَمَيطر ومسلمة فصار في زُهاء عشرين ألفاً، فلم يزل يحيى بن صالح يحاصره ويحاربه حتى أجلاه عن القريتين جميعاً، فصار إلى قرية حُسبان وبها حصن حصين فأقام به وتفرّق عنه أصحابه»[1].

وإذا كان ياقوت قد اقتصر في التعريف بالفدَّين على ذكر حادثة خروج الفدَّيني على المأمون، التي تقدم ذكرها، ولم يُقدم ـ على خلاف عادته ـ لهذا الخبر أي تعريف بالمكان، فقد تولَّى ذلك صفي الدين البغدادي الذي اختصر كتاب ياقوت وخلَّصه من الحكايات والأشعار، واستمدَّ التعريف بها من الحكاية المذكورة، لكنه وهم في إضافة ترجيح آخر يجعلها من نواحي زيزياء بقوله: «قريةٌ من أرض حَوْران وقيل: حصن قرب زيزاء بالبَلْقَاء»[2].

أمَّا تسمية المفرق، بفتح الراء أو كسرها، مُجوَّزٌ على الوجْهَين[3]، على نحو مَفْرق الشعر أو الطريق، فقد وردَت في أواخر العهد المملوكيّ، وأقدم من ذكرها بهذا الاسم ابن طُولون الصالحيّ في تعداده لمنازل الحج الشّاميّ في رحلته سنة 920هـ/ 1514م[4]، ثم غلَبَت هذه التسمية على المنطقة في العهد العُثمانيّ وتردَّد ذِكْرها على هذا الرسم وتُنوسي اسم الفدين، فذكرها باسم المفرق ـ إضافة لابن طولون ـ كلاً من الجَزيريّ،

(1) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 21: 56 ـ 57، ياقوت: مُعْجم البلدان 4: 240ـ 241، الصفدي: الوافي بالوفيات 15: 217، ووقع فيه ضبط الفدين بضم الفاء وفتح الدال!.

(2) صفي الدين البغدادي: مراصد الاطلاع 3: 1020.

(3) ضبطه الشيخ الرَّحَّالة عبد الله بن حسين السويدي البغدادي بفتح الميم وسكون الفاء وفتح الراء وآخر الحروف قاف، انظر: النفحة المسكية 290.

(4) ابن طولون الصالحي: البرق السامي (مجلة العرب، السنة العاشرة) : 877، وانظر نصّ ابن طولون وبقية نصوص الجغرافيين والرَّحَّالة العرب لدى: الرواضية: مدونة النصوص الجغرافية 2: 207 ـ 215.

وقُطب الدين النهروالي، وكبريت المدني، وإبراهيم بن محب الدين الدمشقي (ت 988هـ) في قصيدته التي نظمها في منازل الحج، ومرتضى بن علوان، وعبد الغني النابُلسي، والسويدي البغدادي، ومحمد أديب بن محمد درويش، والمكناسي، والزَّياني، والسنوسي، وسويله مز أوغلي[1].

وانفرد الرَّحَّالة كبريت المدني بذكر اسم آخر حملته منطقة المفرق إلى جانب هذا الاسم، وهو: وادي القديم[2].

وقدَّم بعضُ الجغرافيّين تفسيرات لمعنى تسميتها بالمفرق، فالرَّحَّالة كبريت فسَّر التسمية «لأن الحُجَّاج إذا رجعوا تفرّقوا فيه»[3]، ووافقه على ذلك الشيخ الخياري بقوله: «وسبب تسميته بذلك أن أهل القرى كطرابلس ونابلس ومَن وصل مع الحاج من أهل البَلْقَاء والزرقاء يتفرّقون منه إلى أوطانهم؛ فلذلك يسمّونه المفرق»[4] ولا يبعد هذا التفسير عن قول عبد القادر شلبي: «والسبب في تسميته بالمفرق لأن الحجاج يفترقون فيه عن بعضهم، ومن يرغب منهم يذهب في دربه من منزل الشام»[5]، ومثله أيضاً قول الرَّحَّالة التونسي محمد السنوسي بقوله: «سمّي هذا المكان بالمفرق لتفرّق الحجّ فيه بغير انتظام»[6].

أما الشيخ البوسنوي، مصطفى، فيشير في منظومته الضامة لمحطات الطريق ومنازله أن مدلول هذه التسمية لكونه فاصل بين المواضع المعمورة والصحراء، وسماه: «مفروق»، وألمح إلى أن هذه المعلومة مستمدة من بدو تلك المنطقة، وترجمة عبارته:

يقول الأعراب: هذا المكان فاصل للصحراء ليس به ماء؛ فلا يغرق به أحد[7]

وأورد الشيخُ الرَّحَّالة السويديّ البغداديّ وجهَين آخرين في سبب تسميتها باسم «المفرق»، يتَّفق في الرأي الأول مع كلام البوسنوي المتقدّم، قال: «سمّي بذلك لما قيل إنه فارقٌ بين العمارات وغيرها. ويحتمل

---

(1) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة 2: 1266، قطب الدين النهروالي: الفوائد السنية (مخطوط) 126أ، كبريت: رحلة الشتاء والصيف 231، الخياري: تحفة الأدباء 1: 90- 91، رحلة حج ابن علوان 1112، البوريني: تراجم الأعيان 2: 12، النابلسي: الحقيقة والمجاز 3: 405، السويدي: النفحة المسكية 290، المكناسي: إحراز المعلّى والرقيب 251، الزياني: الترجمانة الكبرى 186، السنوسي: الرحلة الحجازية 2: 281، رحلة سويله مز أوغلي 136- 138

(2) كبريت: رحلة الشتاء والصيف 231.

(3) كبريت: رحلة الشتاء والصيف 231.

(4) الخياري: تحفة الأدباء 1: 90 ـ 91.

(5) شلبي: منازل الطريق (مخطوط) الورقة 40ب.

(6) السنوسي: الرحلة الحجازية 2: 281.

(7) البوسنوي: دليل المناهل (مخطوط)، الورقة 22أ. وأصل البيت باللغة العثمانية:

ديمش أعراب بر صحرايه مفروق صويى يوق كيمسه أولما زآنده مغروق

أنه اسم مكان للفَرَق ـ بفتحتين ـ وهو الخوف، وذلك لانقطاع العمارات عنده، فيُتَوهّم الخوف من عدوّ وقلّة زاد وماء وعطب دابة»[1].

ويظهر أن الرأي الأوَّل هو الأظهر والأدنى للصواب، على نحو تسميتهم لموضع تشعّب النهر بالمَقْسِم، أمّا قول البوسنوي والسُّويديّ فلا وجه له، إذ إن القولَ بانقطاع المفرق عن العمارة ومواطن السكن لا يتوافق مع وجود الكثير من القرى والبلدات والتجمُّعات السُّكَّانية حولها، وقد نوَّه الرَّحَّالة كبريت المدني بوجود الكثير من القُرى والضياع بجوار المفرق[2]، إضافة إلى انتشار القبائل البدويّة في تلك النواحي، مع قُرب المفرق أصلاً من درعا ومن الزرقاء وغيرهما من البلدات المعروفة فضلاً عن قُربها النسبيّ من مدينة دمشق، ودفعاً للمُقترح الثاني الذي قدّمه السويديّ؛ فإن الحُجَّاج قد واجهوا في طريقهم بين الشام والحجاز الكثير من المواضع الأخرى المنقطعة التي ينعدم فيها الأمن بغارات اللُّصوص وقُطَّاع الطُّرُق، وهذه أولى بحمل التسمية المتولدة من «الفَرَق = الخوف» عوضاً عن المفرقَ.

المفرَق ممرٌ لركب حُجَّاج الشام:

كانت الطريق المسلوكة عند الحُجَّاج والتُّجَّار فيما بين الشّام والحجاز أو مصر تمرّ من بُصْرَى ومنها إلى الزرقاء، غير أن هذا الطريق أخذ بالتحوّل إلى الغرب قليلاً ليأخذ من أذرعات (درعا) إلى المفرق، أو ينزاح إلى الغرب أكثر ليمرّ من المزيريب ومنها إلى الرمثا ثم إلى المفرق، ويبدو أنَّ هذا التحوّل قد بدأ في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[3]، ولهذا فقد ارتبطَت المفرق بالطريق التي يسلكها حُجَّاج الشّام ومَن رافقهم من حُجَّاج الجزيرة والمناطق الشمالية كالقوقاز وحُجَّاج أذربيجان وبعض حُجَّاج إيران، إضافة إلى الحُجَّاج القادمين من البلاد العُثمانيّة، ولهذا فقد تردَّد ذكرها في كُتُب الرحلات ومنازل الحجّ، خاصَّة في العهد العُثمانيّ.

وإلى المفرق يكون انتهاء المرافقين لأهاليهم في خروجهم للحجّ، فمنها يعود مَن لا يرغب منهم بأداء الحجّ إلى دمشق أو إلى المنطقة التي خرج منها، بعد أنْ يودع أهله أو أصحابه[4].

وعادة ما تكون إقامة الركب بالمفرق للاستراحة لمدة يوم أو أقلّ دون نصب الخيام، أو المبيت بها لليوم الذي يليه، تبعاً لما يُقرّره أمير الحجّ الشاميّ.

---

(1) السويدي: النفحة المسكية 290.
(2) كبريت: رحلة الشتاء والصيف 231.
(3) الرواضية: مدونة النصوص الجغرافية 2: 209.
(4) محمد أديب: بهجة المنازل 47.

الرَّحَّالة	القدوم من	مدة السير، أو المسافة	مدة الإقامة بالمفرق	المغادرة إلى	مدة السير
قطب الدين النهروالي	الزرقاء	من الصباح إلى قرب المغرب	من المغرب إلى منتصف الليل	أذرعات (درعا)	-
هبري أفندي	المزيريب	13 ساعة	-	الزرقاء	9 ساعات
الخياري	الزرقاء	من الصباح إلى العصر	من العصر= فجر اليوم التالي	الرمثا=المزيريب	-
مرتضى بن علي بن علوان	المزيريب	(الساعة 3 ـ 7 مساءً)، 4 ساعات	نحو 4 ساعات	الزرقاء	20 ساعة
عبد الغني النابلسي	الزرقاء	من العصر إلى صباح اليوم التالي	من الصباح إلى العصر	الرمثا	من العصر حتى منتصف الليل
عبد القادر شلبي	المزيريب	9 ساعات	-	عين زرقة	9 ساعات
الحاج إبراهيم	المزيريب	7 ساعات	-	عين زرقة	12 ساعة
عبد الله السويدي	المزيريب	13 فرسخ	-	الزرقاء	9 فراسخ
ابن محمد درويش	المزيريب	11 ساعة	-	عين الزرقاء	12 ساعة
ابن عُثمان المكناسي	المزيريب=الرمثا	الليل كله	من الصباح إلى العصر	الزرقاء	12 ساعة
أبو القاسم الزياني	المزيريب	10 ساعات	-	الزرقاء	12 ساعة
السنوسي	الزرقاء	-	-	الرمثا	-
سويله مز أوغلي	الرمثا	8 ساعات	-	الزرقاء	-

وتجاوَزَت المصادر الجغرافيّة وكُتُب الرحلات الإشارة للسُّكَّان ولم تُقدّم أية تفصيلات عن الحياة الاجتماعيّة فيها، ولم تتضمّن أيضاً أي إشارة لمظاهر التجارة أو نَصْب الأسواق في المفرق، ولعل مرور موكب الحجّ منها قد وفَّر لبعض سُكَّان المفرق والقُرى المجاورة لها فرصة لبيع منتجاتهم على الحُجَّاج، كما هو الحال لدى أهالي الرمثا الذين كانوا يُلاقون الحُجَّاج ببعض منتجاتهم كالفطائر والبيض والخبز وغير ذلك من المأكولات[1]، وفي العادة فإنَّ مرور ركب حُجَّاج الشام من المفرق يكون في أواخر شهر شوال أو مطلع ذي القعدة، ويُتوقَّع وقت مرورهم في طريق العودة في مطلع شهر صفر من السنة التي تليها، وربما لم تكن الفائدة التجاريَّة ذات جدوى في مرحلة ذهاب الركب، بسبب قُرب المفرق من المزيريب التي تشهد قيام «الأسواق العامرة بما يحتاج إليه الحُجَّاج، بل بكل ما يتّجِر به، وفي هلال ليلة ذي القعدة يوقد ما في الوادي من الدكاكين، ألفاً ونحوه، وتُعرف بالوقدة، وتوقد الشموع والمشاعل في الركب، وتكون ساعة عجيبة»[2].

(1) النابلسي: الحقيقة والمجاز 3: 405.
(2) كبريت: رحلة الشتاء والصيف 231.

الوصْف الجغرافيّ والعمرانيّ:

أشار الجزيري إلى وجود تل بالمفرق[1]، ووصف عبد الرحمن هبري المنطقة في سنة 1041هـ بأنها برية ليس فيها قلعة ولا قرية[2]، وقدم الرَّحَّالة الخياري في رحلته من المدينة إلى اصطنبول في صفر عام 1080هـ/ 1669م وصفاً جغرافياً للمفرق وللطريق فيما بين الزرقاء والمفرق التي سلكها الحُجَّاج في عودتهم من موسم حج سنة 1079هـ، قال بعد أن غادر الزرقاء: «فسرنا مبادرين بغلس وقد أخذت العجلة من الحُجَّاج بالنفس، علونا أول المسير تلالاً مرتفعة، وهبطنا وهادًا تكاد أن تكون ممتنعة، حتى وجب فرض العصر، واقتضى الكلال من المسير الجمع والقصر، فنزلنا منزلاً بين وهاد وربى، مخضر العذبات يميلها الهواء طربًا، قد اشتدّ به سُلطان الهوى فلم يبق عمود فسطاط قائمًا إلا حركة يكاد يهوى أو هوى، وهذا المنزل يسمّونه: المفرق... وقد أقمنا به إلى أن صلّينا به العشائين وذهب ألم التعب والأين، واستمرَّينا به نستعذبُ السمر، ونستقربُ طلوع القمر، فإنه نادى الأمير أن لا رحيل ولا مسير حتى يسطع نوره وتنكشف ستوره، فاستمرَّينا نتلوا القرآن ونتدارس التبيان، نُحيي به الليل، ونقوّي ما ضعف من الحيل، إلى أن لاح لنا القمر وقد ملّ السامرون السمر»[3].

أما الشيخ عبد الغني النابلسي الذي مرَّ بالمفرق في طريق عودته من أرض الحجاز سنة 1105هـ/ 1693م، فقدم صورة مغايرة لما حكاه الخياري، فبعد أن أقام بالزرقاء شدّ الرحال مارًا بوادي البطم وصولاً إلى المفرق، قال: «ثم أصبح صباح يوم الأربعاء، وهو اليوم الثاني من صفر الخير، فنزلنا في أرض المفرق تحت ظلال الخيام، وليس هناك ماء ولا قلعة ولا بيوت. فما هي دار مقام، إلى أن صلّينا صلاة العصر. ثم ركبنا وسرنا في ذلك الطريق السهل، فمررنا على قرية الرمثا...»[4]. ومثله الرَّحَّالة عبد الله السويدي البغدادي في رحلته إلى الحج سنة 1157هـ/ 1744، وصفها بأنها «برّ لا عمارة فيه ولا ماء»[5].

ووصفها الرَّحَّالة الوزير السفير ابن عُثمان المكناسي في رحلته سنة 1202هـ/ 1788م بأنها بيئة صحراوية، قال: «وهذه البلاد كلّها بسيطة ذات انفساح كثير، صحراوية نباتها الشيح والحرمل وما أشبه ذلك، فظللنا مقيمين هنالك في حرٍّ شديد»[6].

---

(1) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة 2: 1266.
(2) هبري أفندي: مناك المسالك (مخطوط)، الورقة 106أ.
(3) الخياري: تحفة الأدباء 1: 90- 91.
(4) النابلسي: الحقيقة والمجاز 3: 404- 405.
(5) السويدي: النفحة المسكية 290.
(6) المكناسي: إحراز المعلّى والرقيب 251.

وتعرَّض الرَّحَّالةُ سويله مز أوغلي إلى طبيعة أراضي المفرق وتربتها، وكان قد مرَّ بالمفرق في أواخر العهد العُثمانيّ (سنة 1306هـ/ 1890م) قال: «والأراضي هنا ترابية أيضاً، إلا أن بعض أماكنها صخرية، والطريق أحياناً مستوٍ، ويمرّ أحياناً أخرى بين الممرّات الواقعة بين بعض التلال الصغيرة»[1].

أما المعالم العمرانيّة، فيُشير الجزيريّ إلى وجود خانٍ قديم بالمفرق، ولهذا فقد أطلق على البلدة اسم: «خان المفرق»[2]، ونفى النابلسيّ والسُّويديّ وجود أي مظاهر عمرانية فيها، ولم يُشاهدا أي قلاع أو بيوت أو أثر عمرانيّ[3]، ولعل ذلك يرتبط بمكان نزولهم في أراضي المفرق، بما يُتيح لهم مُعاينة الخان أو القلعة التي بها، خاصة وأن دفتر صرة العربان رقم (2422) والمتضمّن تقييد مُخصَّصات رجال القبائل وبعض الموظَّفين المسؤولين عن خدمة القلاع والآبار في سنة 1192هـ يُشير إلى قلعة المفرق ومقدار ما يتقاضاه المسؤول عن رعايتها[4]، ومر بالقلعة في العام الذي يليه (1193هـ/ 1779م) الرَّحَّالة محمد أديب وأكد وجود القلعة ولكنها خراب[5]، وبقيت على خرابها حتى زوالها في القرن العشرين، إذ مر بها الرَّحَّالة التونسي محمد السنوسي في سنة 1299هـ/ 1881 وأشار إلى وجود قلعة خربة بالمفرق[6]، وهي القلعة التي سمَّاها سويله مز أوغلي قلعة «الفدين» ووصفها بأنها قلعة مهجورة، واستطرد بالقول مبيّناً الغاية التي تم إنشاء القلعة من أجلها دون أن يحدد تاريخ بنائها، قال: «وتوجّهت نحو قلعة الفدّين الواقعة إلى اليسار بعد أن ركبت هجيناً، وعندما شاهدتُ أنقاض آثار كهذه، والتي أقيمت بتضحيات من أجل المحافظة على طريق الحجّ، عدتُ أدراجي متألّماً بطبيعة الحال وواصلت السير في الطريق»[7]، ولم يُشر تقرير البعثة المرسلة في عهد محمد علي باشا في أواخر شهر صفر 1251هـ/ 1835م، إلى أي أثر لقلعة بالمفرق، بل لم يذكر المفرق أصلاً، وإنما ذكر الرمثا وبعدها الزرقاء، وكان الفريق مُكلَّفاً بالكشف عن القلاع وبرك المياه وما تحتاجه من إصلاحات وترميمات على امتداد الطريق فيما بين دمشق ومكّة[8]، ولعلها بلَغَت من الخراب والتدمير بحيث لا يُمكن استصلاحها، فلهذا أغفلها التقرير المذكور.

(1) رحلة سويله مز أوغلي 137.
(2) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة 2: 1266.
(3) النابلسي: الحقيقة والمجاز 3: 405، السويدي: النفحة المسكية 290.
(4) أوزدمير: دفاتر الصُّرَّة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء، (ضمن كتاب المحمل الشريف) ص 127.
(5) محمد أديب: بهجة المنازل 47.
(6) السنوسي: الرحلة الحجازية 2: 281.
(7) رحلة سويله مز أوغلي 136- 137.
(8) تقرير ناطق بالإصلاحات والترميمات اللازمة للقلاع وبرك المياه، دار الوثائق القومية بالقاهرة، وثيقة رقم 27، الورقة 1.

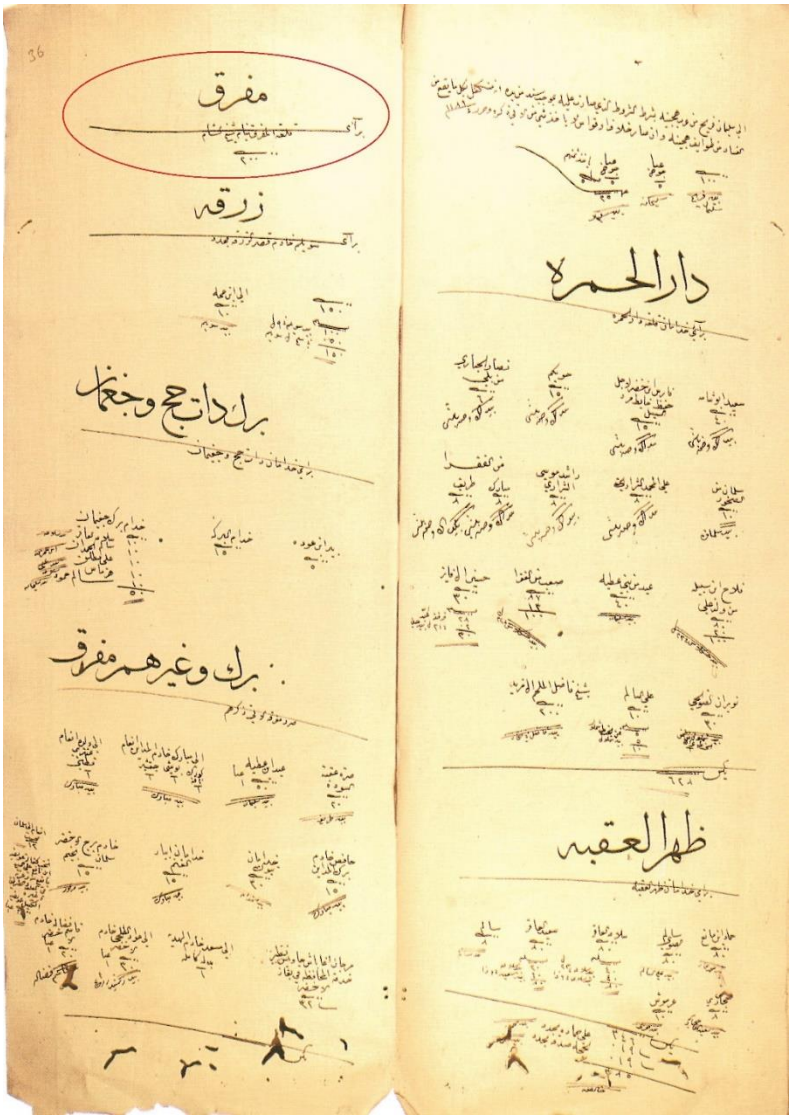

دفتر صرة العربان رقم (2422) سنة 1192هـ/ 1778م.
المصدر: جاغلار: المحمل الشريف 127.

الحالة المائية:

كان التزوُّد بالماء وحمله من أهم العناصر التي يحرص عليها المسافرون عموماً بما فيهم الحُجَّاج ويحتاطون عليه، وقد غلَبَت على المفرق صفة قلّة المياه بها، ووصفها الجزيريّ وهبري أفندي وعبد الغني النابلسيّ وعبد القادر شلبي والبوسنوي وعبد الله السويديّ ومحمد أديب بن محمد درويش وسويله مز أوغلي بأنها منزلة خالية

من الماء[1]. واضطرّ الفريق المكلَّف بالكشف على برك المياه على امتداد الطريق بين دمشق ومكَّة، المشار إليه آنفاً، إلى حمل الماء من الرمثا إلى الزرقاء لانْعدامه فيما بينهما[2].

وشرب أهل المفرق من مياه الأمطار، وقد عايَن الرَّحَّالة محمد أديب وجود بعض الجدران الحجريَّة المعدَّة لصدّ السيول وتجميع المياه على هيئة البرك والصهاريج[3]، على أن الماء الذي يكثر بها في فصل الشتاء يتسبب بسيول الوديان ووقوع الوحل الذي يعيق السفر، ولهذا نجد في أوصاف الرَّحَّالة الذين اجتازوا بالمفرق في فصل الشتاء التنويه بصعوبة السير بها، كقول الرَّحَّالة التونسي محمد السنوسي في طريق العودة من أرض الحجاز سنة 1299هـ/ 1881م، قال: «وأرضه ـ أي المفرق ـ بما حمله المطر تخلّ به كالعجين ولذلك كان مخيفًا، وتوالى المطر، ورأى الباشا حَسَن الإقامة خشية مزالق الإبل»[4]. وعندما مر بها الشيخ الرَّحَّالة قطب الدين النهروالي في يوم السبت 12 صفر 965هـ/ 3 كانون الأول (ديسمبر) 1557م نزل عليهم مطر خفيف، ولم يُشر لأي صعوبة في الطريق[5].

ويلفت النظر إشارة الشيخ كبريت لوقوع السيول بها في أواخر فصل الربيع وبداية موسم الصيف، وكان مروره منها في طريق عودته من اصطنبول مرافقاً لركب حُجَّاج الشام في حدود 25 شوال 1039هـ/ أوائل شهر حزيران (يونيو) 1630م، وكان وصفه لها بأنها «مسيل كثير الزلق»[6].

ورغم قلَّة المياه بها فلم يشكل عائقاً أمام المسافرين والحُجَّاج، لتوفره في المواضع التي قبل المفرق وبعدها، بالقدر الذي يمكن المسافر من حمله ويكفي حاجته، خاصة في المزيريب التي تسبق المفرق وتتوفَّر فيها عين ماء كبيرة تسمى عين البجة[7]، إضافة إلى وجود بركة ماء مستحدثة في الرمثا قبل سنة 1251هـ[8]، ثم قُربها من وادي الزرقاء الذي يليها، وهو ماء موصوف بالعذوبة[9]، وكان ماء الزرقاء يجري في الصيف والشتاء بحسب إفادة الوزير المكناسي الذي مرَّ به صيفاً في أوائل شهر آب سنة 1202هـ/ 1788م، فأقام

---

(1) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة 2: 1266، هبري أفندي: مناك المسالك (مخطوط)، الورقة 106أ، عبد الغني النابلسي: الحقيقة والمجاز 3: 405، شلبي: منازل الطريق (مخطوط) الورقة 40أ، البوسنوي: دليل المناهل (مخطوط)، الورقة 22أ، السويدي: النفحة المسكية 290، محمد أديب: بهجة المنازل 47، رحلة سويله مز أوغلي 138.

(2) تقرير ناطق بالإصلاحات والترميمات اللازمة للقلاع وبرك المياه، الورقة 1.

(3) محمد أديب: بهجة المنازل 47.

(4) السنوسي: الرحلة الحجازية 2: 281.

(5) قطب الدين النهروالي: الفوائد السنية (مخطوط) الورقة 126أ.

(6) كبريت: رحلة الشتاء والصيف 231.

(7) كبريت: رحلة الشتاء والصيف 231، النابلسي: الحقيقة والمجاز 3: 405 (وفيه: نهر البجة وعليه جسر)، السويدي: النفحة المسكية 286.

(8) تقرير ناطق بالإصلاحات والترميمات اللازمة للقلاع وبرك المياه، الورقة 1.

(9) النابلسي: الحقيقة والمجاز 3: 404.

الحُجَّاج على أطراف الوادي واستقوا وغسلوا ثيابهم[1]، وأشاد التقرير المقدّم لمحمد علي باشا في سنة 1251هـ/ 1835م حول الموارد المائية على طريق حاج الشّام إلى وَفْرة الماء بالزرقاء، «وهي كثيرة المياه ويمرّ فيها مجرى نهر عين الزرقاء وماؤها طيّب للغاية، وقد نبتت حوله أشجار الزقوم والناب بكثرة»[2]. ولعله لأجل ذلك لم تعتن الدولة العُثمانيّة بإقامة البرك والأحواض بالمفرق لتجميع مياه الأمطار، أو باستنباط الماء وحفر الآبار، على خلاف معهودها في كثير من المواضع على امتداد طريق الحجّ الشاميّ، وقد أشار الرَّحَّالة سويله مز أوغلي إلى الأوضاع المائية في المفرق وفي الجهة الشرقية منها، وما يتوجّب فعله لتوفير الماء، قال: «وهذا السهل يخلو من الماء وهو غير مأهول. وتحيط بهذا السهل تلال صغيرة وجبال، وإلى غربه تقع مدينة متهدّمة تسمّى خربة التمر[3]. وعلى بُعْد ألف متر من هذه المدينة نصبنا خيامنا للراحة. والمسافة من رمته (أي: الرمثا) إلى هذا المكان هي 11 ساعة، 44 كيلومتر، وممَّا يُؤسف له أن تترك هذه الأماكن برمتها لعدم وجود الماء فيها، لأننا إذا أخذنا الآثار القديمة الموجودة هنا بنظر الاعتبار، نجد أن هذه الأماكن كانت في السابق معمورة ويبدو أنه نظراً لعدم وجود المياه في ذلك الوقت أيضاً، فقد دفعت الحاجة إلى إقامة الأحواض الكبيرة وحفر الآبار وبذلت الجهود لإعمارها. ولو تم حَذْوِ حَذْوِ السلف واتُّبِعَت الوسائل مثلما كانت موجودة فلن يبقى هناك أي عائق؛ إذ من الممكن الحصول على الماء، وذلك ليس بإقامة الأحواض وحفر الآبار فقط، بل بإقامة السدود في أماكن مناسبة أيضاً، إذ أن كمية كبيرة من الأمطار تسقط على هذه الأماكن في فصل الشتاء، ويستدلّ هذا من آثار السيول الكبيرة»[4].

(1) المكناسي: إحراز المعلّى والرقيب 251، وانظر: قطب الدين النهروالي: الفوائد السنية (مخطوط) 126أ، هبري أفندي: مناك المسالك (مخطوط)، الورقة 106 ب، كبريت: رحلة الشتاء والصيف 232، السويدي: النفحة المسكية 291.

(2) تقرير ناطق بالإصلاحات والترميمات اللازمة للقلاع وبرك المياه، الورقة 1.

(3) كذا وردت في مطبوعة الرحلة في ثلاثة مواضع، ولعل الاسم محرف صوابه: خربة السمرا.

(4) رحلة سويله مز أوغلي 137.

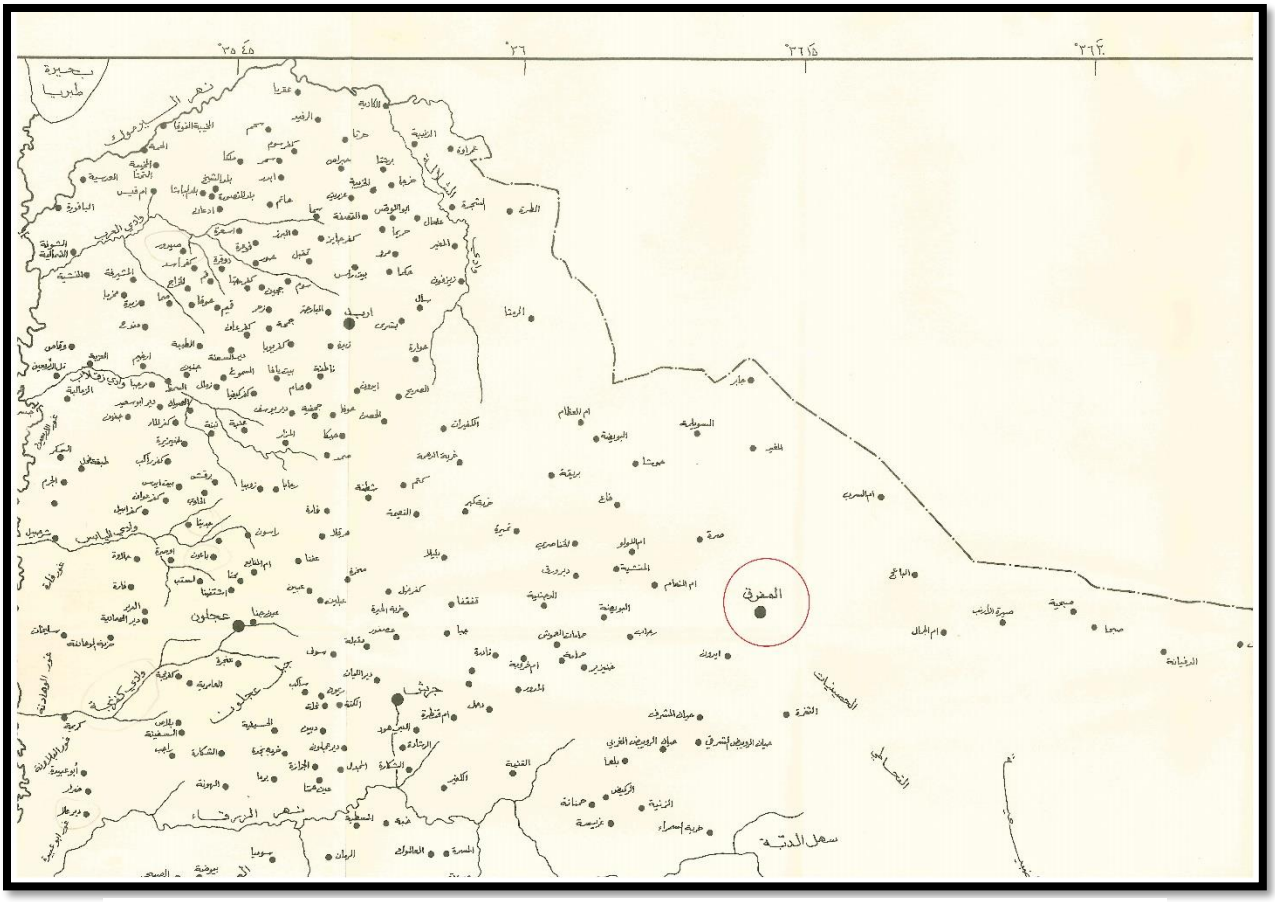

خارطة المفرق وجوارها

المصدر: مدونة النصوص الجغرافية لمدن الأردن وقراه (ملحقة فى آخر الكتاب)

المصادر المخطوطة:

- البوسنوي، مصطفى (ت نحو 1164هـ/ 1750م): دليل المناهل ومرشد المراحل، مكتبة وهبي أفندي (السليمانية)، برقم 1024.
- تقرير ناطق بالإصلاحات والترميمات اللازمة للقلاع وبرك المياه والموجودة في المراحل والمنازل الواقعة في الطريق بين دمشق الشام ومكّة المكرمة (في عهد محمد علي باشا). القاهرة، دار الوثائق القومية، محفظة 18 (بحربرا) وثيقة رقم 27، بتاريخ 27 صفر سنة 1251هـ/ 1835م.
- الحاج إبراهيم (كان حياً سنة 1194هـ): منازل الحج، ومسافة الفج للعج والبج من غير اللج، تأليف الحاج إبراهيم، مكتبة عاشر أفندي (السليمانية) باسطنبول، ضمن مجموع رقم 241/1.
- شلبي، عبد القادر المعروف بقدري: منازل الطريق إلى بيت الله العتيق، مخطوط، مكتبة آيا صوفيا (السليمانية)، برقم 1469.
- النهروالي، محمد بن أحمد بن محمد قطب الدين المكي (ت 990هـ): الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية «تذكرة النهروالي»، نسخة مخطوطة ضمن مجموعة ولي الدين أفندي، بمكتبة بايزيد العمومية/ إسطنبول (Beyazit Umumi Kütüphanesi, Velieddin Efendi)، برقم 2440. قيد الطبع بتحقيق المهدي الرواضية في المعهد الألماني للأبحاث، بيروت.
- هبري أفندي، عبد الرحمن (ت 1069هـ/ 1659م): مناسك المسالك، مكتبة لا له إسماعيل (السليمانية)، نسخة كتبت سنة 1088هـ/ 1677م، ضمن مجموع برقم 104/ 3، الورقات (88 ـ 149).

المصادر المطبوعة:

- الأزهري، محمد بن أحمد الهروي (ت 370هـ): تهذيب اللغة [تحقيق] محمد عوض مرعب، بيروت: دار إحياء التراث، 2001م.
- الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد، أبو الفرج (ت 356هـ): كتاب الأغاني، [تحقيق] إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، بيروت: دار صادر، 2002م.
- امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت 80 ق.هـ): ديوانه، [تحقيق] محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ): أنساب الأشراف، [تحقيق] سهيل زكار، ورياض زركلي، بيروت: دار الفكر، 1996م.
- البوريني، الحسن بن محمد (ت 1024هـ): تراجم الأعيان من أبناء الزمان، [تحقيق] صلاح الدين المنجد، دمشق: المجمع العلمي العربي، 1963م.
- التنوخي، عز الدين آل علم الدين (ت 1966م): الرحلة التنوخية [تحقيق] يحيى عبد الرؤوف جبر، عمان: المحقق، 1985.
- الجزيريّ، عبد القادر بن محمد الأنصاريّ (من أهل ق10هـ): الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكّة المعظمة [أعدّه للنشر] حمد الجاسر، الرياض: دار اليمامة، 1983م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد الفارابي (ت 393هـ): الصحاح «تاج اللغة وصحاح العربية»، [تحقيق] أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م.
- ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت نحو 280هـ): المسالك والممالك، ليدن: مطبعة بريل، 1889م.

- الخياريّ، إبراهيم بن عبد الرحمن (ت 1083هـ): تحفة الأدباء وسلوة الغرباء [تحقيق] رجاء محمود السامرائي، بغداد: وزارة الثقافة، 1979 ـ 1980م.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن عبد الله الحنفي (ت 654هـ): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، [تحقيق] مجموعة من الباحثين، بيروت: دار الرسالة، 2013م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (ت 230هـ): الطبقات الكبرى، [تحقيق] علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2001م.
- السنوسي، محمد بن عثمان (ت 1318هـ): الرحلة الحجازية [تحقيق] علي الشنوفي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1981م.
- السويدي، عبد الله بن حسين البغدادي (ت 1174هـ): النفحة المسكية في الرحلة المكية، [تحقيق] عماد عبد السلام رؤوف، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2003م.
- سويله مز أوغلي، سليمان شفيق: رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشّام 1307هـ/ 1890م. [دراسة وترجمة وتحقيق] فاضل مهدي بيات. المفرق (الأردن): جامعة آل البيت، 2000م.
- الشريف الإدريسيّ، محمد بن محمد (ت 560 هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت: عالم الكتب، 1989م.
- شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الدمشقي (ت 727هـ): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد: مكتبة المثنى، (د.ت.).
- الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله، صلاح الدين (ت 764 هـ): الوافي بالوفيات، [تحقيق] مجموعة من الباحثين، بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية (سلسلة النشرات الإسلامية)، 1962-2004م.
- صفي الدين البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت 739هـ): مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع [تحقيق] علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة، 1954م.
- الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ): تاريخ الطبري «تاريخ الرسل والملوك»، [تحقيق] محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة: دار المعارف، 1979م.
- ابن طولون الصالحي، محمد بن علي بن محمد (ت 953هـ): البرق السامي في تعداد منازل الحج الشامي، نشرها الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب: دار اليمامة ـ ج11، 12 س 10 1976م.
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت 571هـ): تاريخ مدينة دمشق، [تحقيق] محب الدين عمر بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكر، 1996 ـ 2000م.
- ابن علوان، مرتضى بن علي (من أهل القرن الثاني عشر الهجريّ): رحلة حج مرتضى بن علوان سنة 1120هـ. [دراسة وتحقيق] عيسى أبو سليم. مجلة أبحاث اليرموك ـ سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 22، ع4، كانون الأول 2006، ص 1105 ـ 1104. ونشرها الشيخ حمد الجاسر مختصرة، بعنوان: رحلة دمشقي إلى الحجّ سنة 1120 هـ. مجلة العرب ح 3، 4، السنة 26، 1991م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 175هـ): كتاب العين، [تحقيق] مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، القاهرة: دار ومكتبة الهلال، (د.ت).
- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، شهاب الدين أبو العباس (ت 749هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، [تحقيق] كامل سلمان الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية، 2010م.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت 817هـ): القاموس المحيط، [تحقيق] نصر الهوريني، القاهرة: دار الحديث، 2008م.

- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد (ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة: دار الكتب الخديوية، 1913م.
- كبريت، محمد بن عبد اللّه الحسني المدني (ت 1070 هـ): رحلة الشتاء والصيف [تحقيق] محمد سعيد طنطاوي، ط2، بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 1385هـ.
- محمد أديب بن محمد درويش (كان حياً 1193هـ/ 1779م): بهجة المنازل، [ترجمة] هشام عجيمي، اسطنبول: مركز التاريخ العربي للنشر، 2020.
- المرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق (ت 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت: دار الهداية للطباعة والنشر، 1965 ـ 2001م.
- المقدسيّ البشاريّ، محمد بن أحمد (ت نحو 380 هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن: مطبعة بريل، 1909م.
- المكناسيّ، مُحمّد بن عبد الوهّاب بن عثمان (ت 1213هـ): إحراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب. [تحقيق] مُحمّد بوكبوط. أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2003م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري، جمال الدين أبو الفضل (ت 711هـ): لسان العرب، بيروت: دار صادر، (د.ت).
- النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني (ت 1143 هـ): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز. [تحقيق] رياض عبد الحميد مراد. دمشق: دار المعرفة، 1998م.
- النهروالي، محمد بن أحمد بن محمد قطب الدين المكي (ت 990هـ): الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية «تذكرة النهروالي»، نسخة مخطوطة ضمن مجموعة ولي الدين أفندي، بمكتبة بايزيد العمومية/ إسطنبول (Beyazit Umumi Kütüphanesi, Velieddin Efendi)، برقم 2440. قيد الطبع في المعهد الألماني للأبحاث، بيروت.
- ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ): معجم البلدان، بيروت: دار صادر، (د.ت).

المراجع:

- بيشة، غازي: القصور الأموية في الأردن، عمان: دائرة الآثار العامة، 1974م.
- التل، صفوان: الآثار العربية والإسلامية في الأردن، عمان: وزارة الشباب، 1988م.
- جاغلار، يوسف، وصالح كولن: المحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين، [ترجمة] حازم سعيد منتصر وأحمد كمال، القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر، 2015م.
- الجالودي، عليان عبد الفتاح: قضاء عجلون (1864 ـ 1918م)، عمان: اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، 1999م.
- الحديدي، عدنان: الأردن وفلسطين «تاريخ وحضارة»، بيروت، عمان: مؤسسة الرسالة ـ دار البشير، 1996م.
- دوغان، إسراء: راه زميني حُجَّاج عثماني از إستانبول تا حجاز، مجلة بهارستان، طهران، س 3، ع 9، ربيع عام 1389 شمسية (2010م). ص 937 ـ 1091.
- دونمز، مصطفى إسماعيل: المنازل الحجازية لطرق الحج في الأعمال الأدبية التركية في القرن السابع عشر الميلادي «مقتطفات من مخطوطة منازل الطريق إلى بيت الله العتيق» لعبد القادر شلبي أنموذجاً. مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، ع45، أغسطس 2020م، ص 235 ـ 262.
- الرجوب، عبد المجيد: العمارة الإسلامية العثمانية في الأردن «قلعة الفدين/ المفرق على درب الحاج الشامي نموذجاً»، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمان، مج4، ع4، 2010م، ص 45 ـ 68.

- الرواضية، المهدي عيد: مدونة النصوص الجغرافية لمدن الأردن وقُراه، عمان: اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، 2007م.
- أبو الشعر، هند غسان: تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني، عمان: اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، 2001م.
- طوقان، فواز أحمد: الحائر «بحث في القصور الأموية في البادية»، عمان: وزارة الثقافة والشباب، 1979م.
- العابدي، محمود: الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، عمان، 1973م.
- عباس، إحسان: تاريخ دولة الأنباط، عمان: وزارة الثقافة (مكتبة الأسرة)، 2020م.
- كفافي، زيدان: الأردن في العصور الحجرية، ط2، عمان: لجنة تاريخ الأردن، 1992م.
- المحيسن، زيدون: الحضارة النبطية، عمان: وزارة الثقافة، 2009م.
- مخلوف، لويس: الأردن «تاريخ وحضارة آثار»، عمان: (د.ن)، 1985م.
- المصعبي، فاطمة عبد الله: الصرة «دراسة وثائقية لنموذج دفتر عام 1171هـ/ 1758م، مَكَّة المكرمة: مركز تاريخ مَكَّة المكرمة، 2018م.
- النجار، محمد (وآخرون): تقرير أولي عن نتائج التنقيبات الأثرية في بلدة الموقر، حولية دائرة الآثار العامة، مج33، 1989م، ص 5 ـ 12.
- هاردنج، لانكستر: آثار الأردن، [ترجمة] سليمان الموسى، ط3، عمان: وزارة السياحة والآثار، 1982م.
- Bakhit, Muhammad Adnan: *Mafraq* "in: Studies in the history of bilad al-sham in the sixteenth century", Introduced and co-editing by: Thaer T. Al-Kadi, Amman: Bilad al-sham History Committee, The University of Jordan, 2009.